دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	تحديث البنيات السياسية العربية
المصدر:	المجلة المصرية للقانون الدولي
الناشر:	الجمعية المصرية للقانون الدولي
المؤلف الرئيسي:	صعب، حسن
المجلد/العدد:	مج 24
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1968
الصفحات:	31 - 42
رقم MD:	276126
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	تسوية المنازعات، العالم العربي، النظم السياسية، الأحوال السياسية، التنمية السياسية، التعاون السياسي، حقوق الملكية، جامعة الدول العربية، الاحتلال الأمريكي للعراق
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/276126

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

تحديث البنيات السياسية العربية

للدكتور حسن صعب

الاستاذ بالجامعة اللبنانية – بيروت

يحدد باحث اجتماعي على ضوء دراسة استقرائية قام بها في ست أمم حديثة مختلفة الثقافة ، الانسان الحديث بالخصائص التالية :

« الأهلية لتقبل الطرق والأفكار الجديدة ، والاستعداد للتعبير عن الآراء ، وحس الوقت الذي يوجه اهتمام الانسان الى الحاضر والمستقبل لا الى الماضي ، والالتزام بالدقة ، والاهتمام بالتخطيط والتنظيم والفعالية ، والنزعة الى اعتبار العالم قابلا للحساب الرياضي ، والايمان بالعلم والتكنولوجيا ، والاعتقاد بالعدالة التوزيعية . » (١) ان هذا النموذج الانساني هو وليد التجربة الحضارية الحديثة التي نشأت أول ما نشأت في أوروبا الغربية ، وامتدت منها الى شمالي اميركا ، فالى اليابان ، فالى الاتحاد السوفياتي ، فالى الصين الشعبية ، وهي الآن في طريق الامتداد الى العالم الثالث .

وسواء أحببنا هذه التجربة الحضارية أو كرهناها ، وسواء اعتبرناها ذروة التقدم الانساني او منحدرا من منحدراته ، وسواء اعتبرنا انسانها نموذجا مثاليا ، أو نموذجا بربريا يهدد بتقدمه التكنولوجي الخارق الحياة الانسانية كلها بالدمار ، فاننا أمام حقيقة تاريخية لا عاصم لنا منها ، وهي ان هذا النموذج الانساني العلمي حقق درجة من الابداعية ، وانجز معدلا من

محاضرة القيت يوم الخميس ٢١ مارس ١٩٦٨ ضمن برنامج محاضرات الحلقة الدراسية للموسم الثقافي للجمعية المصرية للقانون الدولي لعام ١٩٦٨ .

(١) Alex Inkeles, *The Modernization of Man Modernization, The Dynamics of Growth*, ed. Myron Winer, Basic Books, New York, 1966, P. 138-150.

الانتاجية ، وبلغ مستوى من العيش لا عهد للانسانية به من قبل . ولذلك فانه يتحدى من ذروة انجازه الحضارى سائر البشر ان يرتفعوا اليه ، وان يحققوا لأوطانهم ومجتمعاتهم ما سبقهم هو الى تحقيقه .

ويعنى هذا ان قابلية أى مجتمع للبقاء متوقفة على قابليته للاستجابة لهذا التحدى . ويعنى أيضا ان الوظيفة الأولية للمنتظم السياسى political system ، التى حددها فلاسفتنا بأنها « حفظ النوع وبقاؤه » (٢) تقتضى أى منتظم سياسى فى أى بلد متخلف أن يكون الاداة التى تمكن مجتمعه من الاستجابة للتحدى الحضارى الحديث استجابة ناجحة .

وما دامت المفاهيم والافكار والنظم والبنيات تنشأ كاستجابات لتحديات طبيعية أو تاريخية ، فان هذا التحدى يحتم علينا ان نتجاوز المفاهيم السائدة للمنتظمات السياسية التى أعطاها غيرنا كاستجابات للتحديات التى واجهته فى ظروف مختلفة ، لنبحث عن مفاهيم وبنيات جديدة للمنتظم السياسى « التحضيرى » أو « التحديثى » أو « الانمائى » أو « التنظيمى » الأشد فعالية ، والذى يمكننا من اجتياز الهوة بيننا وبين المتقدمين علينا بأسرع ما يمكن من وقت . ويرى ابن خلدون بعبقريته البصيرة هذه الوظيفة « التحضيرية » أو « الاعمارية » للدولة ، فيقول :

« إن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها ، وقد تقرر فى علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك احدهما عن الآخر ، فالدولة دون العمران لا تتصور ، والعمران دون الدولة والملك متعذر . . . » (٣) .

ويعنى هذا أن البحث فى تحديث البنيات السياسية Modernization of political structures العربية هو استقصاء الصيغة التنظيمية المفضلة والممكنة لجعل هذه البنيات أداة تحديث المجتمع العربى وجهاز تحديث الانسان العربى . ويمكن ان يطرق هذا البحث فى السياق الخاص لكل دولة من الدول العربية ، أو فى السياق العام لجميع دول العالم الثالث

---

(٢) عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٥٦ : ص ٦٠ .
(٣) نفس المرجع ، ص ٦٧٨ .

التى تواجه نفس المعضلة التحديثية التى تواجهها الدول العربية ، أو فى السياق الاعم لعملية التحديث منذ أن انطلقت فى أوروبا فى القرن السادس عشر حتى الآن . فنستقرىء التجارب التحديثية لمختلف المجتمعات ، ونحاول ان نستوحيها الاداة السياسية الأفضل لانجاز التحديث . ولا يستقيم لنا هذا البحث إلا اذا تذكرنا أن سبق غيرنا لنا الى التحديث يواجهنا بمزية ، لأننا نستطيع ان ننطلق من حيث انتهى لا من حيث بدأ ، فنختزل بذلك القرون فى حقب . ويواجهنا بعقبة لأن ما انتهى اليه بجعله اقدر على مواصلة السير بأسرع مما يمكن ان نسير ، فيتحتم علينا ان نزيد تخلفا عنه الا اذا امكننا ان نحقق عملية تعجيل التقدم Acceleration of progress .

ويشاركنا اليوم فى هذا البحث العلماء السياسيون والاجتماعيون فى الغرب والشرق وفى العالم الثالث ، الذين يتفرغون لدراسة موضوعات التحديث بصورة عامة وموضوع التحديث السياسى بصورة خاصة . ويحاول هؤلاء أن يقترحوا علينا « النماذج التحديثية » المستوحاة من اختبارات مجتمعاتهم ، والتى يعتقدون انها تتفق مع تطلعات مجتمعاتنا . ويأتى فى مقدمتهم جبريال ألمند ، الذى تعتبر مقدمته لكتاب « سياسات الاقاليم النامية » فتحا منهجيا فى الدراسة الوظيفية البنيوية المقارنة للتحديث أو للانماء السياسى . ويرمى ألمند من وراء هذه المقدمة ودراسات أخرى وضعها بالتعاون من نخبة من الباحثين الى وضع « نظرية علمية احتمالية » Theory of Probability للتحديث السياسى .

ويبنى ألمند « نموذجه المنهجى » على تعريفه للمنتظم السياسى « . . بأنه ذلك النظام من التفاعلات الذى يوجد فى جميع المجتمعات المستقلة ويؤدى وظائف التلاحم والتكيف سواء منها ما كان داخليا أو خارجيا باصطناع القوة أو بالتهديد بها على وجه يتراوح فى مدى شرعيته . . إنه النظام الشرعى ، والأمنى ، والتغيرى للمجتمع . » (٤) ويفترض فى كل منتظم سياسى أن يحقق التلاحم والتكيف والأمن والتغير فى المجتمع عن طريق وظائف يقسمها ألمند على هدى نظرية الدواخل inputs والنواتج outputs الى

---

(٤) Gabriel A. Almond, *Introduction the Politics of the Developing Areas*, editors, *Gabriel A. Almond, James S. Coleman*, Princeton University Press, Princeton, 1960, P.7.

فئتين : فئة الدواخل أو مطالب المحكومين ومؤازراتهم وتشمل التثقيف المجتمعى والتعبئة ، والتوثيق المصلحى ، والتجميع المصلحى ، والتواصل السياسى ، وفئة النواتج أو قرارات الحكام وسياساتهم وتشمل تشريع القانون والقضاء به . (٥) وتعم هذه الوظائف جميع المنتظمات السياسية ، وتختلف البنيات التى تؤديها ، فيعكس اختلافها الخصائص التى يمتاز بها منتظم عن الآخر ، أو المزايا التى يتفرد بها مجتمع دون الآخر .

ويقارب كارل فريدرتش نفس الموضوع من زاوية المتفلسف السياسى الليبرالى المتذرع بالمنهج العلمى التجريبى ، فيعرف المنتظم السياسى بأنه :

« . . الكل القابل للحركة الفاعلة operational الذى يمكن فئة من الناس بأن يتوصلوا لقرارات وان يعتمدوا سياسات بواسطة مؤسسات تؤمن لهم الوسائل اللازمة للتعاون . » (٦) ويعى فريدرتش وعياً تاماً الصعوبات التى تعترض وضع هذا التعريف النموذجى موضع التنفيذ فى جميع انحاء العالم المعاصر ، وبصورة خاصة فى العالم الثالث . ولذلك يكتفى باقتراح الحد الأدنى لا الحد الأقوم ولا الأعلى لمستلزمات هذا التنفيذ ، أو لأصول الحكم الصالح فى الوقت الحاضر والوقت الآتى القريب . ويجملها بما يلى :

أولا ـ الحكومة التى تستطيع ان تتصرف بفعالية ، وان تتخذ جميع التدابير الاقتصادية والعسكرية اللازمة لمواجهة المتطلبات التكنولوجية للبقاء بما فيها التخطيط الشامل .

ثانياً ـ الضوابط القابلة للتنفيذ للعمليات الحكومية ، والتى تحمى العضو المشارك حماية كافية ، وتمكنه من ان يصير وان يظل شخصاً انسانياً . .

ثالثاً ـ مشاركة عملية فعالة من قبل جميع الاعضاء البالغين والاصحاء فى وضع القوانين .

رابعاً ـ أحكام عامة تجسد القيم الدائمة والمعتقدات والمصالح التى يتشارك فيها الاعضاء والتى تقضى بها المستلزمات الثلاثة السابقة .

---

(٥) حسن صعب ، علم السياسة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ٢٢٦ .

(٦) Carl Joachim Friedrich, *Man and His Government, An Empirical Theory of Politics*, McGraw-Hill Book Company, New York, 1963, P. 661.

خامساً ــ قضاء يفسر الأحكام ويحدد بصورة خاصة طرق تسوية المنازعات التى يستثيرها المستلزم الثالث .

سادساً ــ تجمعات اختيارية متعددة كالاحزاب تؤمن النطاق التنظيمى للاختيارات القرارية السياسية ، ولاعداد القادة الحكوميين ، ولحماية الاعضاء المشاركين ، ولوضع حركة مشاركتهم الفعلية موضع التنفيذ ، ولاعادة النظر بالأحكام وتأييدها بصورة متواصلة . (٧)

ويقابل هذين النموذجين الغربيين النموذج الماركسى الشرقى الذى تحول مع لينين فاوتسيتنج من منتظم للمجتمعات الرأسمالية الصناعية المتقدمة الى منتظم أيديولوجى يعطى الأولوية لتحويل المجتمع الزراعى المتخلف الى مجتمع صناعى متقدم . ويعتمد فى ذلك على أيديولوجية تحديثية شاملة ، وسائلها الحزب الواحد الممثل لطبقتى العمال والفلاحين ، والتأميم الشامل لوسائل الانتاج ، والتخطيط العلمى الشامل للانماء الاقتصادى . ويحدد لينين الخطوط الكبرى للنموذج الماركسى فيقول :

« ان العمال متحدون شيوعيا فى روسيا بسبب ما يلى :

أولا ــ الغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج .

ثانيا ــ تنظيم الدولة البروليتارية للانتاج على نطاق واسع فى الأرض التى تملكها الدولة وعلى نطاق وطنى فى المصانع العامة ، وتوزيع اليد العاملة بين مختلف فروع الانتاج . . وتوزيع كمية كبيرة من سلع الاستهلاك التى تملكها الدولة للشعب العامل . » (٨) وقد جرى تطبيق هذا النموذج فى مختلف الدول والمراحل الشيوعية بوحى مبادىء ايديولوجية تحديثية واحدة ، وان اتخذ التطبيق اشكالا مختلفة . ويتناول الباحثون الماركسيون على هدى هذه المبادىء معضلة التحديث أو الانماء فى العالم الثالث ، فيربطون بينها وبين البنية الطبقية ، ويؤكدون كما فعل افاكوف ومرسكى ، ان التحليل الأخير يدل على ان مجرى التحديث :

---

(٧) نفس المرجع ، ص ٦٦٣ .

(٨) V.I. Lenin, *Marx Engels Marxism*, Foreign Languages Publishing Houses, Moscow, 1951, P. 515.

« . . . يتوقف على الطبقة التى تصبح القوة القائدة فى المجتمع ، والتى تنجح فى اجتذاب الجماهير ، فعلى كيفية تساوق الطبقة والقوى السياسية داخل البلد . . . » (٩) .

وتبدو من تحليل هذه النماذج الثلاثة عناية الفكر الغربى بوظائف الاداة السياسية للتحديث وبنياتها ومبادىء تنظيمها ، بينما يظهر اهتمام الفكر الماركسى بالحركيات الاقتصادية والقوى الاجتماعية التى تتعهدها هذه الاداة . ولكن الفكرين يتفقان على المهمة التحديثية لهذه الاداة ، بحيث يعتبر ألموند المنتظم السياسى أداة تكييف المجتمع والتحامه وتغيره تغيراً متواصلا . ويعتبره فريدرتش آلة التخطيط الشامل . فيلتقى بذلك مع الفكر الماركسى ، الذى ينظر نفس النظرة الى الاداة الحكومية التى تقيمها الثورة الشيوعية .

ويثير أفاكوف ومرسكى القضية التى تبدو فى نظرنا المعضلة الأهم ، وهى قضية الطبقة القيادية التى يمكنها أن تتولى عملية التحديث . ونحن نفضل أن ندعوها « النخبة القيادية » ، لأن استعراض مختلف التجارب التحديثية فى أوروبا وأمريكا وآسيا وأفريقيا يدل على أنه توالت عليها أكثر من طبقة واحدة ، كما يدل على صعوبة حصر الذين اشتركوا فيها فى فترة واحدة وفى بلد واحد بطبقة واحدة . وأقرب مثل على ذلك التجربتان السوفياتية والصينية ، التى يدل الاستقراء التاريخى على ان الذين قادوا التحديث فيهما باسم البروليتارية هم بأكثرهم من أبناء الطبقة المتوسطة . (١٠) .

ويحتل بروز النخبة القيادية التحديثية فى نظرنا ، أيا كانت أصولها الطبقية ، الأهمية الأولى فى عملية التحديث . فهى الرأسمال التحديثى الأول . وبدونها تذهب جميع مقومات التحديث الأخرى هدراً . وهى التى تصنع البنيات السياسية الأفضل للتحديث . ويمكن أن تختلف كيفية تشكيلها من طور لآخر ، ومن مجتمع لآخر ، فتكون نخبة مدنية فى مجتمع ما وعسكرية

---

(٩) R. Avakov and G. Mirskiy, *Class Structure : the Underdeveloped Countries, The Third World in Soviet Perspectives*, Studies by Soviet Writers on the Developing Areas, Ed. by Thomas Perry Thornton, Princeton University Press, Princeton, 1964, P. 277.

(١٠) Raymond Aron, *La Lutte des Classes, nouvelles leçons sur les sociétés industrielles*, Gallimard, Paris, 1964.

فى مجتمع آخر . وتكون نخبة تعمل كفريق متعاون كما يغلب الحال فى اليابان ، وكما رجح الحال فى تركيا بعد وفاة اتاتورك ، أو تعمل بقيادة قائد رسولى كما كان الحال فى الهند مع نهرو ، وكما هو الحال مع سيادة الرئيس جمال عبد الناصر فى الجمهورية العربية المتحدة ، والرئيس سيكوتورى فى غينيا ، والرئيس أيوب خان فى الباكستان .

ولا تخضع بروز هذه النخبة اليوم فى العالم الثالث للعوامل الاقتصادية والاجتماعية ، التى كان تخضع لها فى أوروبا الغربية أو أمريكا الشمالية ، أو أوروبا الشرقية . وذلك لأن معجزة التواصل الحضارى والثقافى الانسانى بلغت اليوم حداً ييسر تكوين النخبة القيـــــادية على ما يمكن ان ندعوه « المستوى الانسانى » . ونعنى بذلك ان القيم والاصول التحديثية يمكن أن تنقل من نخبة مجتمع الى نخبة مجتمع آخر نقلاً ايديولوجيا أو ثقافيا أو تربويا أو اعلاميا أو تكنولوجيا أو تدريبيا يتيح للنخبة القيادية أن تسبق المجتمع الذى تنتمى اليه سبقا هائلا فى استساغة أصول التحديث ، ثم لا تلبث ان تستثمر هذا السبق فى تعجيل تحديث المجتمع الذى تنتمى اليه . ولذلك يكاد يجمع الباحثون الانمائيون اليوم من اقتصاديين وغير اقتصاديين ، على ان الفرق الحقيقى بين معدل الانماء فى دولة وأخرى ، هو الفرق بين الدولة التى توفرت لها والدولة التى لم تتوفر لها مثل هذه النخبة القيادية التحديثية . ولذلك فان البحث فى تحديث البنيات السياسية العربية هو أولا البحث فى تمكين النخبة التحديثية من أن تصبح صانعة القرارات فى الدولة التى توفرت فيها ، وهو ثانيا بحث فى تكوينها فى الدولة التى لم تتكون فيها بعد .

وإذا القينا نظرة خاطفة على استجابة العالم العربى للتحدى التحديثى المعاصر ، فاننا نجد أول بوادر هذه الاستجابة من الحكام منذ القرن السابع عشر فى محاولة الأمير فخر الدين المعنى الكبير ، الذى زار أوروبا وعاش فى فلورنسا ، ان ينظم امارته تنظيما حديثا بمساعدة الخبراء الأوروبيين . وتلى ذلك المحاولات العثمانية لتحديث الجيش فالقانون فالادارة فالاقتصاد فالدولة . وتشغل مصر فى ذلك دوراً رائداً ، فتكون أول من يقدم المفكرين من رواد التحديث فى شخص الطهطاوى . ويظهر بعد ذلك رواد التحديث الدينى وفى مقدمتهم جمال الدين الافغانى ومحمد عبده . ويبرز رواد التحرر الوطنى فى شخص عرابى ومصطفى كامل . ويبرز فى لبنان وسوريا رواد التحديث القومى والتربوى من الادباء والمفكرين وأهل الانباء ، ورواد

التحديث الاقتصادى من أرباب الأعمال . وتظهر الطليعة الأولى لرواد التحديث العسكريين فى الضباط العرب ، الذين اشتركوا فى حركة حزب الاتحاد والترقى الى أن انفصلوا عنها ، وألفوا برئاسة على عزيز المصرى قبل الحرب العالمية الأولى جمعية العهد ، وهى أول جمعية عسكرية سياسية عربية حديثة . (١١) .

وظلت عملية التحديث تسير بعد ذلك سيراً متقطعا فى ظل حركات التحرر القومى ، الى ان توصلت النخبة القيادية العسكرية بعد الحرب العربية — الاسرائيلية الأولى عام ١٩٤٨ الى الاستيلاء على الحكم فى سوريا ومصر والعراق . ولم يكن هذا من قبيل الصدفة . فقد برزت هذه النخبة على أنها القوة التنظيمية التحديثية الوحيدة بعد انهيار الواجهة الليبرالية الديموقراطية العربية تحت وطأة النكبة الفلسطينية الأولى . فحققت هذه النخبة مكاسب تحديثية ثورية أساسية أهمها القضاء على الاوليغاركيات الملكية والاقطاعية الفاسدة ، ونقل السلطة من الطبقة العليا الى الطبقة المتوسطة ، وتوزيع الأراضى على الفلاحين ، والتشريع لصيانة حقوق العمال ، واشراك الفلاحين والعمال فى التمثيل الشعبى ، والتوسيع فى التربية والتعليم والسكن والصحة العامة لجميع المواطنين ، واعتناق الايديولوجية الاشتراكيـــة ، وتعميم الروح القومية العربية ، وتشجيع البحث العلمى ، واعتماد سياسة التخطيط والانماء ، وتحقيق الاستقلال الوطنى ، والتزام سياسة عـــدم الانحياز ونيل المساعدات الخارجية من الدول الغربية والشرقية ، ومساعدة سائر الشعوب العربية على تحقيق التحرر القومى ، والتضامن مع شعوب العالم الثالث فى نضالها فى سبيل التحرر والتقدم .

وكان يحسن بهذه النخبة ان لا تنتظر نكسة الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، لتقدر ان دورها الثورى التاريخى انتهى بنقل السلطة من الطبقة العليا الى الطبقة المتوسطة ، وان دورها الحقيقى بعد ذلك هو المساعدة فى تنظيم بنيات الحكم تنظيما شرعيا وتخصصيا وانجازيا تعطى هى فيه القدوة بتحديث البنية الدفاعية تحديثا انسانيا وتكنولوجيا ، وفى انصرافها لهذا التحديث انصرافا كليا ، بحيث تصبح البنية الدفاعية رائدة التحديث الانسانى والعلمى والتكنولوجى

---

(١١) Dr. Hassan Saab, *The Arab Federalists of the Ottoman Empire*, Djambatan, Amsterdam, 1958, P. 200–270.

فى المجتمع ، وتظل الدرع الواقى لعملية التحديث الشاملة تجاه خطر العدو الاسرائيلى أو أى خطر خارجى آخر .

والطبقة المتوسطة المدنية بمختلف بنياتها السياسية والادارية والمهنية والتربوية والانبائية هى المدعوة الآن بقيادة سيادة الرئيس جمال عبد الناصر وبالتعاون مع طبقتى العمال والفلاحين بمختلف بنياتها النقابية والتعاونية الى تحقيق التحديث البنيوى الثورى الذى لم يتحقق بعد . وإذا بدا ما نقوله منطبقا على الشقيقة العزيزة مصر أكثر من غيرها ، فذلك لأن مصر منذ بداية النهضة العربية فى القرن التاسع عشر بصورة عامة ، ومنذ تولى قيادتها الرئيس جمال عبد الناصر بصورة خاصة ، تقدم النموذج التحديثى العربى الرائد ، وبقدر ما يستقيم هذا النموذج بقدر ما تستقيم العملية التحديثية فى سائر انحاء الوطن العربى .

وإذا جاز لنا ان نجمل فكرنا بكل احترام ومحبة حول هذا الموضوع ، قلنا ان الطبقة المتوسطة المدنية مدعوة الآن لأن تصبح رائدة تعميق الثورة التحديثية الاشتراكية بما فيها من مفاهيم وقيم مجتمعية وانسانية وعلمية وتنظيمية وعدالية ، ومسؤولة عن ترسيخ هذه المفاهيم والقيم فى نفوس سائر المواطنين ، وعن ترجمتها فى تنظيمات ونظريات وسياسات تحديثية عصرية ، وعن توجيهها توجيها سلوكيا ديموقراطيا لا بالمعنى الاجتماعى أو الاقتصادى للديموقراطية فحسب ، بل وبمعناها السياسى أيضا . ونؤكد على المضمون السياسى للاشتراكية الديموقراطية ، لأنه المحك الحاسم لقابليتنا للحرية ، وأهليتنا للحكم الذاتى ، ولأن أعمق تحديث بنيوى سياسى يحتاج إليه العرب اليوم بعد أن عجزوا عن تحقيقه فى أكثر أطوار تاريخهم هو التحول من التناوب السلطوى العنفى والاكراهى والانبغاثى الى التناوب السلطوى السلمى والشرعى والاقناعى والدورى . ولا يتم هذا التحول الا للذين يبدؤن بممارسته .

وبهذا تقدم النخبة القيادية المصرية للشعب العربى كله النموذج الاشتراكى الديموقراطى للتحديث . وتنقل عملية التحديث هذه الى بنيات العمل العربى المشترك ، وفى مقدمتها جامعة الدول العربية ، فتحولها من ساحة للتعاون الكلامى ، وندوة للتصورات التجريدية الى اداة للتلاحم الانمائى العربى . فالدول العربية ، وان اختلفت فى نخبها القيادية ، وفى اجتهاداتها الايديولوجية ، إلا انها تدخل كلها الآن مختارة أو كارهة عهد الثورة الانمائية . ولذلك ،

فان الجامعة العربية ، ما لم تنظم تنظيما جديداً يمكنها من استقطاب التعاون البنيوى الاقليمى الاساسى ، الذى تمليه الثورة الانمائية ، فانها ستصبح مؤسسة غير ذات موضوع .

وقد حملتنا مقاربتنا الحرفية الكلامية للأشياء حتى الآن على الاعتقاد بأن وحدة اللغة أو الثقافة تكفى وحدها أساسا للتلاحم العربى . ولذلك تركنا الجامعة تدور فى حلقة مفرغة ما فوق بنيوية ، superstructural وتركنا أكثر قراراتها حول البنية الاساسية المشتركة infrastructure ، والتى تتعلق بتلاحم مصادر الطاقة المشتركة ، أو المواصلات الاقليمية ، والمؤسسات التجهيزية الانمائية المالية والاقتصادية ومؤسسات البحث العلمى المشتركة ، تركنا أكثر هذه القرارات والادارات الحديثة اللازمة لها حبراً على ورق . واظهر أخواننا أبناء المغرب العربى وعيا تحديثيا ايجابيا أعمق بهذا الشأن فانصرفوا بصمت وفعالية لتشييد البنية الانمائية الاساسية الاقليمية لتوحيد أجزاء المغرب الأربعة ، ليجعلوا منها القاعدة المحسوسة للأشكال الأخرى للتلاحم .

وان تحقيق التلاحم البنيوى الاساسى الاقليمى العربى هو ضرورة اقتصادية وضرورة دفاعية عربية تجاه الخطر الاسرائيلى . وان وجه الحياة العربية ليتغير فيما لو تلاحمت مصادر الطاقة العربية من الطاقة المائية الكهربائية الى البترولية الذرية فالى البحثية الانسانية ، وفيما لو عم الهاتف الآلى بين جميع الدول العربية ، واصبح لنا ارسال تليفزيونى مشترك يبلغ جميع الحواضر والقرى العربية ، وفيما لو ركبت خطوط الهاتف الحار بين رؤساء الدول العربية . وانها لوصمة تاريخية لنا ، أن واشنطن وموسكو كانتا أثناء حرب حزيران تتهاتفان فى كل لحظة تريدانها حول مصيرنا ، بينما يعجز حتى رؤساء دولنا المشتركة فى القتال عن التخاطب مع بعضهم البعض .

ولعل مثل هذه الوجهة الانمائية للتعاون العربى تحمل بعض دولنا ذات الفائض رأسمالى، على ان تحول رؤوس أموالها الفائضة من حقل الاستثمار المصرفى الخارجى الى حقل الاستثمار الذرى ، الذى تحدث تغيرات بنيوية انمائية ثورية تكون فى الأمد الطويل أرفع مردوداً من الناحية المالية الصرفة من الاستثمارات المصرفية وأية استثمارات أخرى . ونعطى مثلا واحداً عليها فى المشروع الذى يضعه بعض علماء الذرة الآن لبنـــاء حواضر ذرية

زراعية – صناعية فى العالم الثالث . وهو مشروع لا علاقة له بالمشروع الذى اقترحه ستروبس على ايزنهاور على اثر حرب حزيران . وتختار مواقع هذه الحواضر ما بين البحار والصحارى ، وتستوعب الواحدة منها مئة ألف من العمال والمزارعين وعائلاتهم ، وتصدر منتوجات زراعية وصناعية لخمسة ملايين ، وتنتج اسمدة كيماوية وأغذية لخمسين مليونا . ويكلفت بناء الواحدة منها مليار دولار (١٢) . ان الارصدة العربية الخارجية تقدر بأكثر من أربعة مليارات من الدولارات . فلو استثمر نصفها فى بناء اثنتين من هذه الحواضر واحدة فى الخليج العربى ، والثانية فى الجنوب العربى ، لتغير وجه الطبيعة واشرق وجه الحياة فى الجزيرة العربية كلها ، ودفع الخطر الذى يهدد اقتصادها لدى استنفاد البترول ، أو هبوط قيمته الماليـة .

ونود لو تدخل الجامعة العربية بتأثير وجهتها الحديدة، وتنظيمها الحديد وبمبادرة النخبة القيادية المصرية ، عهد التفاعل المسؤول ، والتكافىء العادل ، والتكامل العقلانى ، بحيث تنشر الثقة بين جميع أعضائها ، بأن تشاركهم المتبادل والخلاق فى فعاليتها هو للخير العربى العام وللخير الخاص لكل عضو من أعضاء الاسرة العربية .

ونقول هذا ، ونحن نعرف ان أراضينا محتلة من قبل العدو ، واننا معرضون لغزوات وغارات جديدة فى كل لحظة ، وان هذا الوضع يقضى علينا جميعا فى كل دولة عربية بأن نعبىء مواردنا الانسانية والاقتصادية والدفاعية ، وان نحشد جميع طاقاتنا الداخلية والخارجية فى عملية تنظيم وتحديث الخطة العربيـة المشتركة لازالة آثار العدوان وأسبابه . ولكن يبدو لنا ان تعميق مكاسب الثورة ، وتحديث نخبها القيادية وبنياتها السياسية تحديثا ديموقراطيا هو أيضا وجه أساسى من وجوه هذه التعبئة ، التى تجعل المشاركة فيها على مختلف المستويات مشاركة أكثر طوعية وأكثر اختيارية .

ولنذكر دائما وابداً الحقيقة المبدئية الثورية الأولية ، وهى أن الكينونة هى حركة الصيرورة المتجددة . ولنجابه بهذه الحقيقة نكسة الخامس من

---

(١٢) The New York Times, March 10, 1968, P. 74.

حزيزان ، ونصمد لعواقبها الداخلية والخارجية . فتبدو لنا النكسة على ضوئها التحدى الذى يستفزنا لانطلاق تاريخى جديد ، نحقق فيه ما عجزنا عن تحقيقه فى انطلاقاتنا السابقة . ويتضح لنا أنها ليست التحدى الأول ولا الأخير الذى يواجهه شعبنا العربى وهو الشعب الذى عانى عملية صنع الحضارة طيلة خمسة آلاف عام ، واستجاب استجابة ظافرة لتحد تاريخى بعد الآخر . فلا بد له أن يخرج من التحدى الجديد بانطلاق جديد ، وبنصر جديد .

ومصر هى أم الحضارة الانسانية . وهى الأم التى حنت على الانسان ، فولدت له حضارة بعد الأخرى ، واحتضنت له حضارة بعد الأخرى ، وجددت له حضارة بعد الأخرى . وقد افتدى شعب مصر الخالدة جيلا بعد الآخر ، عملية صنع الحضارة بقيمها الروحية وأشكالها المادية بنفسه ودمه . وقدم فى سبيلها عمله ونيله . واسهم فى تكوينها بعبقريته ويده . فأرسى القواعد الأولى التى ارتفعت بها أعمدة الحضارة منذ العصور القديمة حتى الآن . وهذا الشعب الصابر الباسل ، الذى يتجدد شبابه مع الزمن ، وينصقل صبره بالمحن ، وتنصهر بسالته بالتجارب ، يغدق العطاء اليوم فى سبيل عملية خلق جديدة ، عملية صنع مجتمع جديد ، بل عملية تكوين انسان جديد . وما النكسة اليوم ، كما كانت بالأمس ، الا حجاب الليل العابر الذى يؤذن باشراق صبح جديد .